إلى شباب القصصيين

كيف احترفت القصة

قصة الإنسان «ج. ب. ستيرلد»

للأستاذ أحمد فتحي

في تعاون خبيث بين عقلي الواعي والباطن، يبدو لي دائماً أنني كنت — حتى الثامنة عشرة — قد أرصدت عمري كله لإخراج قصتي الأولى. ولكنني حين أرجع البصر في الموضوع؛ أتبين أني لم أخرج هذه القصة الأولى إلا بعد أن بلغت الحادية والعشرين. وإن أبعث للإنسان على استدعاء صور الماضي أن يكون قد كتب قصته الأولى وهو لم يودع من عمره سوى ثمانية عشر ربيعاً، وأن تكون قصته تلك على جانب من الأمانة الفنية، كما أذكر من أمر قصتي الأولى «بانتومايم»!

وحين أنظر الآن إلى القصص الأولى لكثير من الكتاب المعاصرين، أجدها تتسارى في السطحية والضآلة وإظلام آفاق التفكير. فما أجد بينها واحدة كانت خليقة أن تبشر بخير، غير أنها جميعاً تنطق أفصح النطق بما أحب أن أدعوه «فوضى السخرية!» ... والحقيقة أنني كنت أميل كثيراً إلى القصص الساخر إلى ما قبل ظهور قصتي الأولى بسنوات. وهذا اللون الساخر نفسه من ألوان الفن القصصي، كان صورة من أظهر صور العصر. وكم كنت أرقص طرباً كلما قرأت شيئاً لأحد من أعلامه، ولا سيما كاتب «برونللا» وهو «لورنس هاوسمان» وكاتب «مهرج العصر» وهو «إرنست داوسن»!

ولقد كانت تلك سني حياة ساخرة عابثة مرتجلة!.. ولربما أسفت عليها الآن وحننت إليها حنيناً ...

وتأثرت بطراز هذه القصص الساخرة فكتبت على غرارها كثيراً من القصص، أذكر منها واحدة اسمها «بائع الأحلام»

وكان هنالك كاتب اسمه «باري» وآخر اسمه «لوك» وإني لأذكر كيف كان أبي في أحيان كثيرة يقول لي «آه... حينما تستطيع أن تكتب مثلما يكتب «لوك!» ثم يهز رأسه في قنوط؛ دون أن يتم العبارة..!

على أن أعلى مثال للقصة الساخرة كان ولم يزل: ماثلاً في «كرنفال كومبتون ما كنزي» وقيمتها الخالدة ترتكز على ما فيها من دراسة صادقة حية لشخصية البطل، ولكني لم يكن يعنيني كثيراً منها ومن أمثالها من قصص هذا الطراز الساخر سوى بعض العبارات الملونة التي تتمتع بقسط أوفى من قوة الإفصاح وصرامة التعبير. وإني لأذكر حين كنت في مستقبلي أتحدث إلى إحدى صاحباتي ممتدحة قصة «الكرنفال» كيف أن صديقتي قالت في أسلوب رائع من النقد الفني «أجل... هذا المؤلف يستطيع أن يكسو الصفحة من الورق منظراً طبيعياً ساحراً» ... وقد أغلى هذا من طمعي، وحسبتني مستطيعة أن أكسو — أنا الأخرى — صفحتي منظراً طبيعياً ساحراً! جملت أتخيله، بألوانه، وظلاله، ومشاهده، ولم تكن هذه المحاكاة يسيرة ولا قريبة المنال، فإن التزامها كان يقتضيني ثلاثة أمثال ما يلزمني من الوقت!

كنتُ إلى أن بلغت الحادية والعشرين، أعنى بكتابة المسرحيات وحدها. لأنني كنت أودُّ حينذاك أن ألعب أدواراً في مسرحياتي إذا أخرجت! وكذلك كنت أكتب الأشعار، ومن قصائدي واحدة اسمها «هنا مضحكون آخرون» لا أزال أرويها إذا ألحّ عليها طلب حار؛ ولكنه لا يوجد! كما أنني كتبتُ ثلاث أقاصيص قصيرة حملتها بنفسي إلى محرر «المجلة القصصية» وكان في ذلك الوقت «ر. سكوتلاند ليدل». ولقد كان — على غير توقع مني — إنساناً لطيفاً. انصرفتُ من حضرته بعد أن وعد بنشر أقاصيصي، وبعد أن أمضينا وقتاً طيباً في حديث طيب. وفي بضعة الشهور التالية لم أسمع شيئاً عن هذه الأقاصيص، ثم لقيت الرجل مصادفةً في شارع «أكسفُرد» وما كاد يراني حتى أخبرني بأن أقاصيصي جميعها قد ظهرت في مجلته، وأنه كان الأيسر أن أترك له عنواني كي يبعث إلى بثمن ما نُشر لي!

وبعد، فقد أستطيع التحدث عن بدء كتابتي «القصة» بمعناها الصحيح. ولحسن الحظ أن الثامنة والأربعين تنظر إلى الحادية والعشرين بعطف وإشفاق، وفي غير فزع! كان الدافع لي على الكتابة هو تلك الخاتمة الفاجعة الأليمة التي انتهى بها «حُبّي» الذي حسبت أن لا نهاية تنتظره! والذي كان غراماً شعرياً إلى غير حد!

كان « تشارلس » غضّ السنّ ، جذاباً ذكيّ الفؤاد . . . التقينا فى بعض حدائق « ميدنهد » ثم أهدى إلى نسخة من كتاب «لورنس» المسمى «ماكياتيلى الجديد» . ذلك الكتاب الذى ترك فى نفسى أبعد الأثر بفصوله الرائعة ، وبأنه هدية من حبيب القلب !

كان مغرماً بالطائرات ، ولقد حلق مرة على متن إحداها فى مساء ساحر ، وعدنا إلى بيته بعد أن انتصف الليل بساعتين ، ولقد تلقانى قومه فى شىء من عدم الارتياح ، والشك فى مستقبلى ككاتبة ! وعلى أى حال فان والدته من فورها قد أخذت تعلمنى كيف ترقع سراويل الرجال !

دامت خطبتنا عاماً . ولم يكن هنالك من المتاعب سوى افتقارى إلى المرانة فى البيت . فقد نشأت فى بيئة فتيات يهوديات من عائلات طيبة . ولم تكن هذه البيئة دينية على وجه الاطلاق. وإنما كانت تتميز بالزهد وتتشبث بأهداب الطهارة . وإنى لأذكر العبارة التى كانت الفتيات يستعملنها دائماً فيما بينهن ... « إنك لن تظفرى بزوج أبداً مالم تغلى نقية . . . وعذراء ! » وربما لم تكن هذه العبارة تعنينى وحدى ، ولكنها كانت تغنى فى جوى أنا ... ربما ؛ حقاً ؛ إنها لم تزل تغنى فى جو حياتى إلى الآن ! ..

إن شباب هذه الأيام ، على قلة ثرثرتهم ، يعرفون جيداً كيف يجيبون على سؤال شاب حار الدم ، خطب لنفسه فتاة يحبها ، وقد أمضى وقتاً طويلا وهو لا يستطيع الاقتران بها لعجزه عن التغلب على بعض العوائق الاقتصادية ! . أجل ، إن شاب اليوم يستطيع أن يقطع برأى حاسم فى مثل هذه المسائل. ولكن ، حين عرضت لى نفس الظروف لم أستطع أن أصنع شيئاً ، بل لم أعلم ماذا يراد أن يصنع بى . وقد ندر ما كنت أتحدث وخطيبى فى هذا الصدد ، بصفة غير مباشرة . وهذا من أظهر الفروق الملحوظة بين تلك الأيام ، وبين أيامنا هذه !!

واعترف لى الفتى بأنه كانت له عشيقة ، امرأة جميلة ، ولكنها ليست « خاصة » ! وكانت تكبره فى السن .

« بالتأكيد يا تشارلس ، كان هذا قبل الآن ... » هذا ماقلت له ، دون أن أعلم أنى كنت وراء مطلب عسير ، هو النقاء التام فى الجسد ، كما فى الروح ! !

لم يرض أبى عن هذه الخطبة من أول الأمر ، وكثيراً ماكان يقول لى « ليس فى خلق هذا الفتى شىء من الثبات ، هل هو على شىء من الثبات ؟ كلا ! .. »

وكنا نلتقى ، كعاشقين مضاربين ، فى ظل استياء أبى وتجهمه . ومضى عام كامل ... وكان « تشارلس » مهندساً بارعاً ولكنه كان قليل الصبر على عمله المسئم الذى لم يكن يبشر باتساع فى الرزق !

وفى بعض الأمامى ، حيث كنت أعيش معه ومع أمه ، صحب عشيقته إلى « دروري لين » وكان الصباح التالى مقروراً جهما . وكذلك كنت . وحين أقبل المساء اعترف لى بأنه لا يستطيع أن يحتفظ بأمانته لحبي أكثر من ذلك . وقذفني ببعض الألفاظ المؤلمة ! فأخذتنى المفاجأة شر أخذة . ثم افترقنا بوسيلة تمثيلية أكثر مما كان ينبغى ! !

كيف أعالج بقية أيام حياتى ؟! . هذا هو السؤال الذى ألح على خاطرى بعد فشل غرامي العظيم ! ولقد وثب إلى ذهنى أننى لو استطعت أن أكتب قصة من روائع الفن فسأبعث الحسرة والأسف فى نفس من نأى عنى بجانبه ...

فى مخدع أنيق فى « برايتون » ، وبغير تحضير تقريباً ، بدأت كتب السطور الأولى من قصتى الأولى .

كان على حوائط المخدع أستار حريرية مسدلة ، وكانت نيران الموقد تتلظى فى لهب ساطع براق . وإنى لأذكر القليل من ظروف كتابة « بانتومايم » وإن طريقتى الآن هى أن أظل أدور حول موضوع قصتى شهوراً ؛ قبل أن أبدأ فى تسجيل فصولها ؛ مع تسطير بعض الخواطر المبعثرة على أوراق منفصلة أجمعها فى النهاية فتكوّن هيكل الموضوع الناضج الذي أخرجه للناس . وفى ذلك الحين لا بد أن أكون بدأت تسجيل فصول قصتى مباشرة ، لأسرى عنى الألم ، وأزجى الفراغ الذى كان يملأ حياتى ، والذى كنت أشعر به دائماً .

وعقدت فى تلك الأثناء صداقة وثيقة مع فتاة فى مثل سنى اسمها « روز آلاتينى » هى اليوم تحترف الكتابة باسم « لوسين ونيرايت » وكانت هى أيضاً قد بدأت كتابة قصة . وكثيراً ما كنا نكتب مجتمعتين قلماً إلى قلم ! وكثيراً ما كان يحدث فى تروضنا بالمشى أن نقف بأسماء الناشرين المطلقة على دورهم ؛ نفكر أى دور النشر الكثيرة هذه يحسن استقبالنا بعد حين ؟! ولقد

استقر رأينا على دار « بودلى هد » أخيراً ...

وحدث أن كنا فى بعض خلواتنا الفنية نكتب فى جوحالم حين طالعنا وجه رجل أبيض الشعر معقود الحاجبين ، عرفنا فيه « جون لين » ولم نشأ أن نصدمه باخباره بأننا نكتب «قصتين» سنعرض عليه أمر نشرهما فى القريب !

بعد فراغى من كتابة قصتى الأولى « بانتومايم » بعثت بها إلى والد « مارجريت هالستان » الذى كان قد أرضته مسرحية كتبتها منذ أربعة أعوام تقريباً حينما كنت فى « الأكاديمية المسرحية » واسمها « خادم الأجر » كانت مفزعة حقاً . وكانت له فى نشرها وجهة نظر خاصة .

وقرأ المستر « هرتز » قصتى فزعم أنها عمل فنى من الطراز الممتاز، وكان فى ذلك حسن الظن جداً، ولكنه لم يكن مصيباً . كان فى القصة الاجادة ولكنها لم تكن ترتفع إلى الدرجة الأولى . بل إنى لأقرر الآن أنها لم تكن أكثر من بشير بالتقدم . ولو أنه أتيح لى — الآن — أن أكتب رأيى فى نفسى — حينذاك — لما زدت على قولى : « لهذه الكاتبة استعداد حسن ، ولا يبعد أن تنبغ إذا استطاعت أن تقهر أخطاءها الشنعاء ! »

على أن الرجل قد كتب إلى يقول إنه قد أظهر على قصتى صديقاً له يدعى المستر « جيمس دوجلاس » وقد تفضل هذا بدوره فكتب إلىّ مطرياً يقول إنه قرأ القصة ، ثم دفع بها إلى صديقه « جون لين » . وظننت بذلك أنى أصبحت « فى عداد المؤلفين » الذى تعتمد عليه دار « بودلى هد » للنشر ! ولكن « جون لين » لم يلبث أن أعاد إلى قصتى مصحوبة بقوله « إن هنالك ناشرين يرضون بأن يقبلوا هذا الهواء المزركش — على حد تعبيره — ولكن دارنا لا يمكن أن تفعل ذلك ! »

وانزعجت كثيراً ... فان قرار الرجل كان يبدو نهائياً بقدر ما كان يبدو فيه من تحقير ! ولم يكن لى من قوة الروح ما يبرد لى الظن بأن « جون لين » لم يكن يدرى عم يتكلم ! ولم يكن يتبين العمل الجيد حين يقدم إليه . أو لم ينشر « الكتاب الأصفر » ؟ ؟ أو لم يكشف الستار عن مئات العبقريات المغمورة

وعلى أى حال فانى لا أكاد أذكر من الذى نصح لى بأن أبعث بقصتى إلى « كالثروب » وأن أسأله عما إذا كانت رديئة إلى هذا الحد !

ولم أكن لقيت أبداً أكبر الأخوة الذين يحملون اسم « كالثروب » ولكن ، عندما كنت فى السادسة عشرة كان « دونالد كالثروب » ممثلا محترفاً ، وكان بطلا فى نظرى ، وكان فوق ذلك يهوى واحدة من رميلاتى بالدراسة اسمها « نيللى » وقد رغب وإياها فى إخراج إحدى مسرحياتى ، ولكن أخاه الاكبر « ديون » نصح له بالعدول ، وإنما وعد بمساعدتى إذا كتبت خيراً منها فى المستقبل ! !

ولقد تحقق وعده على الأيام . إذ قرأ لى « بانتومايم » وما لبث أن كتب لى فى ظرف ورقة يقول إنه أوصى بى وصاة خاصة عند الوكيل الأدبى لأعماله ويدعى « جيمز بنكر » وكلفه أن يرعانى . غير أننى ، فى قلة صبرى وقلة تجاربى . لم يكن يرضينى منه أقل من أن يقول لى «إن الدنيا تحت قدميك جميعاً. تفضل ياعزيزتى يسى ستيرن » ! !

ودعانى المستر « بنكر » للقائه . فلما ذهبت إليه وسألته سبب هذه الدعوة ، قال إنهم يريدون أن يكسبوا مالاً عن طريقى ! وذكر لى أنهم يتبعون نفس الطريقة مع سواى وعدد لى أسماء اطمأننت إلى سماعها ، وتركت له القصة ، وجعلت أرتقب المستقبل !

واتفقت نهائياً على نشر القصة فى سبتمبر ١٩١٣ ، وظهرت للناس فى يناير ١٩١٤ . ولم تكن هذه سنة حسنة ليبدأ أى إنسان حياته العملية !

وأنا وإن لم أقرأ القصة قراءة كاملة منذ عام ١٩١٤ ، إلا أننى كثيراً ما أتصفح بعض فصولها بين الفينة والفينة ، فأجد فيها كثيراً من الهنوات التى أصبحت أنزه عنها أعمالى الأدبية ، غير أننى أجد فيها دائماً أشياء تبعث على الارتياح

وكثيراً ما أصادف من قرائى من يقول بأن « بانتومايم » قصتى الأولى والأخيرة ، وأننى لم أكتب مثلها أبداً !

بل قد يسألنى بعض القراء « متى أكتب » قصة جيدة مثلها ؟ فأبتسم ، وأقول « أرجو... فى القريب » !

احمد فتحى